العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

نص أندلسي جديد

المختصر من استنزال اللطف الموجود في أسر الوجود لمحمد لسان الدين بن الخطيب

د. محمد مسعود جبران
جامعة الفاتح - كلية الآداب

هذا المختصر النفيس من كتاب «استنزال اللطف الموجود في أسر الوجود» من النثر التهذيبي، أو أدب الوصايا المندرج بمضمونه في مساقات التصوّف الفلسفي، أو تصوّف الحقائق، كان في الأصل كناشاً[1] كاملاً من آخر تآليف مفخرة الغرب الإسلامي والأندلس في القرن الثامن الهجري، بل ممثل الثقافة الموسوعية الإسلامية، وحامل ريادة العلم والحكم في ذلك الأفق أبي عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب السلماني (713/ 776هـ) وقد تمَّ وضع

(*) أودُّ أن أعبّر وأعرب عن شكري وتقديري العميقين لصديقي الباحث المغربي الدكتور خالد الصمدي الذي تفضل فصوّر لي أصل هذا المختصر المخطوط من الخزانة العامة بتطوان رقم (353).

(1) الكُنّاش: يراد به الأوراق كالدفتر تقيّد فيها الفوائد والشوارد.

هذا المختصر باجتهاد أَحد العلماء، لا نزال إلى اليوم نجهل اسمه ورسمه، وبلده وعصره، وإن كنا لا نجهل يده المشكورة في استنقاذ ملامح هذا المخطوط، بل الكناش الأصلي الذي لعبت به طوارق الحدثان، بعد أن تحقّقت الإشارة إليه وإلى إنجازه من مؤلفه ابن الخطيب ضمن بعض مؤلفاته[2]. وأيضاً في رسالته الإخوانية التي كتبها من الأندلس إلى صديقه العلاَّمة عبد الرحمن بن خلدون (732هـ/ 808م) صاحب المقدمة والعبر، حيث قال يخاطبه «وآخر ما صدر عني كناش سميته باستنزال اللطف الموجود في أسر الوجود» أمليته في هذه الأَيام، بما رسم النيابة عن السلطان في سفره إلى الجهاد»[3].

وإذا كان من العسير جداً ـ الإلمام في هذا المقام ـ بالحياة الخصيبة والمؤثرة لشخصيّة ابن الخطيب المتنوعة الجوانب، وبيان أَدوارها وآثارها في مساقات الحياة السياسية والفكرية في العدوتين الأَندلسية والمغربية إبّان القرن الثامن الهجري[4]، فإنه يبدو من المستحسن أن نُمهّد لهذا التحقيق للكناش بنبذة موجزة، نجعلها توطئة وإضاءة لتحليل هذا النصّ التأَملي الذي حبَّره وحرّره الكاتب في ظروف نفسية عامّة أشار إليها ضمن كلمته لابن خلدون وظروف خاصّة نحاول الإبانة عنها بإيجاز.

ولد لسان الدين بن الخطيب السلماني في مسقط رأَسه «لوشة» التي يحرص على تسميتها «بنت غرناطة»[5] عاصمة دولة بني الأحمر أو دولة بني نصر، آخر معاقل المسلمين في الأندلس، لقربها منها، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الموافق السادس عشر من شهر نوفمبر سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف، في بيت مشهور بالأندلس،

---

(2) راجع كتاب الإحاطة، وريحانة الكتاب ونجعة المنتاب مقدمة المحقق، وما كتبه ابن الخطيب عن نفسه.

(3) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: 130.

(4) راجع كتابنا «فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب».

(5) الإحاطة في أخبار غرناطة 4: 438، وهي تقع ـ كما ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان «غربي مدينة غرناطة على قيد خمسين كيلو متراً» راجع الإحاطة في أخبار غرناطة 1: 19.

اشتهر ـ عبر تاريخه ـ بالعلم والمجد والرئاسة، حسبما فصّلت ذلك المراجع القديمة والحديثة[6].

ومن المعلوم أنَّ ابن الخطيب، تلقى علومه المختلفة والمتنوعة في بيته في لوشة وفي الحضرة «غرناطة»، وأخذ فيهما عن أبرز شيوخ عصره المشاهير من أعلام المدينتين، ومن الطارئين عليها[7]. من أمثال محمد بن أحمد المقري وابن مرزوق العجيسي وأبي الحسن علي بن الجيّاب، وابن شبرين وأبي عثمان سعيد بن ليون التجيبي وابن هذيل، وقد أوفوا ـ حسبما قرر ابن الخطيب ـ على نيّف وثلاثين شيخاً[8].

وتولّى بعذد ذلك التحصيل الذي أفاد منه من أولئك الأشياخ وغيرهم أكبر المناصب والخطط في الدولة النصرية على عهدي السلطانين أبي الحجاج يوسف النصري، وابنه السلطان محمد الغني بالله، أو محمد الخمس، وقد نهض بفضل ألمعيته وتحصيله وذكائه النادر بأَدوار سياسية مهمة ضمن سياق حياة هذه الدولة وحركتها في أحوال السلم والحرب[9]، بل إنني أثّبتُ في أُطروحتي للدكتوراه حتى عنوان «فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ـ المضامين والخصائص الأُسلوبية» أنّه كان على المستوى السياسي في ذلك العهد الحاكم

(6) راجع في ذلك: لسان الدين بن الخطيب «الإحاطة في أَخبار غرناطة» وأبا العباس أحمد المقري «نفح الطيب في تاريخ الأندلس الرطيب» ومحمد عبد الله عنان «لسان الدين بن الخطيب ـ حياته وتراثه الفكري»، وموسى العربي «الفلسفة السياسية عند لسان الدين بن الخطيب» وابن الأحمر «نثير فرائد الجمان» وعبد الرحمن بن خلدون «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» وابن القاضي «جذوة الاقتباس» وابن عجيبة «أزهار البستان» وابن حجر «الدرر الكامنة، والزركشي: تاريخ الدولتين» وابن زاكور «المعرب المبين».

(7) راجع «نفح الطيب في تاريخ الأندلس الرطيب» لأحمد المقري ودرة الحجال في أسماء الرجال لأحمد بن القاضي، وجذوة الاقتباس له ونثير فرائد الجَمان لابن الأحمر، وأزهار البستان لابن عجيبة.

(8) المراجع المذكورة. وراجع «لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري» لمحمد عبد الله عنان.

(9) لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب لمحمد مسعود جبران، دار أويا ـ طرابلس الغرب: 2003.

الفعلي بل السلطان الحقيقي لمملكة غرناطة[10]، وهو ما وقف عليه عبد الرحمن ابن خلدون، وصرّح به في مذكراته، أو «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً»[11].

كما كان ـ إلى جانب ذلك الظهور السياسي ـ من أشهر العلماء والمؤلفين والأُدباء والفلاسفة الذين كان لهم تأثيرهم البعيد في نسق الحياة الفكريّة في الغرب الإسلامي والأندلس[12] وهو ما جعله يجمع بمواهبه وقوة نفسه بين رئاسة الحكم والعلم في القرن الثامن الهجري في الأندلس، وهو أيضاً ما أثار حفائظ خصومه من السياسيين والعلماء على حدٍّ سواء.

لقد وصلت إلينا جملة من آثار هذا العبقري المنثورة والمنظومة الدالّة على مقدار تجويده في الفكر والأدب وغيرهما من الفنون والعلوم، وضاعت ـ بكل أَسف ـ آثار أخرى كثيرة، نتيجة لما تعرض له هذا العلم المُحسَّد من فتن، ومكائد وأَحقاد، كان من آخرها ظهور رؤوس الفتنة/ المشؤومة في غرناطة بالأندلس، التي تولّى كبرها المقربون منه ممن أَحسن إليهم، والتي أودت في النهاية بحياته في مهجره بمدينة فاس المغربية في أواخر عام (776/ 1375)[13] حيث قتل خنقاً ثم حرقاً فسميّ ذا الميتتين، وذا القبرين، بعد أن سُمِّي في حياته بتسميات أُخرى مثل: ذي العمرين وذي الوزارتين[14]، و«لله الأمر من قبل ومن بعد»[15].

ومن آثاره المفقودة هذا الكناش الذي ننشره هنا ونعلّق عليه «استنزال

---

(10) فنون النثر الأدبي في آثار ابن الخطيب الباب الأول.

(11) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: 91.

(12) راجع محمد عبد الله عنان «لسان الدين بن الخطيب ـ حياته وتراثه الفكري» وموسى العربي «الفلسفة السياسية عند لسان الدين بن الخطيب» وعبد العزيز بن عبد الله «الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب» ومحسن حامد العبادي «لسان الدين بن الخطيب الأديب» ومحمد مسعود جبران «فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب».

(13) راجع تفصايل ذلك في المراجع المذكورة سابقاً.

(14) ابن الخطيب من خلال كتبه للفقيه محمد أبي بكر التطواني.

(15) سورة الروم، الآية: 4.

اللطف الموجود في أَسر الوجود» الذي ضاع عينه ـ على الرغم من أَنّه من آخر تآليفه ـ ولم يصلنا منه إلا هذا المختصر الوحيد الباقي الذي تشتمل عليه الخزانة العامة بمدينة تطوان في المغرب الأقصى[16]، تحت رقم (353) وهو مكتوب بخط مغربي معتاد ودقيق[17].

والحقُّ أنّنا لا نعلم على وجه الدقة والتحديد اسم من قام بهذا الاختصار من الأصل الذي كتبه لسان الدين، كما أننا لا ندري السبب الذي حدا به إلى هذا الاختصار الذي حافظ ـ في تقديرنا ـ على ملامح من معالم النص الأصلي، وإن كنا نجهل المقدار الذي اختصره منه، ومهما يكن من شيء فقد أحسن هذا المختصر بالاحتفاظ لنا بأوضاح الكتاب وبنائه الموضوعي والمنهجي الذي أوشك أن يتلاشى، وقد قام الأستاذ محمد الأمين أبو خبزة الحسني بنسخ هذه الرسالة من النسخة المذكورة في ذلك المجموع. وسيتركز تحقيقنا وتحليلنا لهذا المختصر على تينك النسختين[17].

لقد اختلفت كلمة الدارسين حول اسم كتاب ابن الخطيب وعنوانه فمنهم من أثبته «استنزال اللطف الموجود في سير الوجود» كذا رسمه الدكتور محمد كمال شبانه في تحقيق كتاب «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، حيث ذكر أنه في التصوف[18] وهو ما أثبته أيضاً الأستاذ محمد عبد الله عنان الذي ذكر بعد إثبات العنوان قوله: «هي رسالة صغيرة في التصوف»[19] ثم أضاف «ولم نعثر على نسخ منها في مختلف المكتبات التي سبق ذكرها»[20] وعدّها في عداد كتب المؤلف المفقودة، بينما أثبت العنوان في تحقيقه كتاب ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب بشكل آخر «استنزال اللطف الموجود في أسرار الوجود»[21].

---

(16) أودُّ أن أعرب عن تقديري العميق لصديقي الباحث المغربي الأستاذ خالد الصمدي الذي تفضل فصوَّر مشكوراً أصل هذا المختصر من الخزانة التطوانية ووافاني به.

(17) مع المقابلة بمخطوط ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب في الخزانة الحسنية رقم (2195).

(18) كتاب معيار الاختيار: 38.

(19) الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق ع1: 63.

(20) م. ن تحقيق ع1: 63.

(21) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب تحقيق ع1: 52.

ومن الباحثين من أثبت العنوان بهذه التسميّة «استنزال اللطف الموجود في سرّ الوجود»[22].

على أن المحقّق في فحوى ما جاء في تضاعيف المختصر الذي انتهى إلينا، يسلّم باعتماد القسم الأول من العنوان الوارد عند أولئك الباحثين المحققين، ضرورة أنه موضع اتفاق بينهم، ولكنه سوف يجنح إلى ترجيح القسم الأخير من العنوان الموجود في المختصر المنقول في الغالب عن النسخة الأم أو نسخةٍ قريبة منها، وهو «أسر الوجود» على القسم الأخير منه المذكور عند محمد كمال شبانة ومحمد عبد الله عنان، وقاهر «سر» و«أسرار» و«سير الوجود» لأنَّ هذا الترجيح ألصق وأعلق بالمعنى المقصود من إنشاء هذا المؤلف في كنّاشه.

يؤيد ذلك قول المؤلف نفسه «فاعلموا أن أسر الوجود قسمان: أسر باطن خفي، لا يعلم إلا بأثره، والاستدلال على عينه بخبره، وهو قسم مفرد وواحد لا يتعدّد، وأسر ظاهر للعيان، محسوس على الأَجيال والأحيان، بادٍ للأَبصار، مستغنٍ بالخبر عن الأخبار»[23] وقد تكرّر لفظ الأسرة مرّة أو مرتين قبل هذا الشاهد في المختصر، كما تكرّر مرات عديدة بعده، كما يؤيده أيضاً ما ذكره المؤلف أيضاً صراحة للعلامة عبد الرحمن ابن خلدون ـ كما تقدّم[24].

وعلى ذلك يتأَصّل العنوان الذي أثبتناه ورجحناه في طالعة التحقيق «مختصر من استنزال اللطف الموجود في أسر الوجود».

ولا ريب عندي بعد ذلك ـ من خلال النقد الداخلي للنصّ ـ في أن هذا العمل ـ على اختصاره ـ يمثل معالم الكناش الأصل الذي أبدعه ابن الخطيب، وأن أسلوبه الموضوعي والشكلي يجسد الأسلوب الخطيبي الخاص المتميز في التأليف، ومن مؤيدات هذه النسبة أنه قرر ـ كما ورد في مخطوطة خزانة

---

(22) الصيب والجهام والماضي والكهام بتحقيق الشريف قاهر: 101.

(23) راجع كتابنا «أبحاث وتحقيقات في تراث الغرب الإسلامي» دار المدار الإسلامي و«التعريف بابن خدون ورحلته غرباً وشرقاً»: 129.

(24) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: 129.

الأسكوريال ـ حسبما نقله الأستاذ عنان قوله: «وثبت في صدر كتابي المسمى بـ «استنزال اللطف الموجود في أسرار الوجود[25]، وهو مما جمعته لهذا العهد»[26]. وممّا يؤيد ذلك أيضاً أن مختصر هذا الكناش قرّر أنه من تأليف ابن الخطيب ـ رحمه الله ـ»[27]. كما أن فيه من أسلوب لسان الدين ذلك السجع والنثر التركيبي الذي عُرف به، وبخاصة في استخدام الفواصل الداخلية المسجوعة داخل الفواصل الرئيسة وهو الذي وضعنا له مصطلح «السجع التوليدي»، مثل قوله في الفاتحة: «الحمد لله الذي خلق الإنسان مهيضاً جناحه بالافتقار إلى ما فيه صلاحه، خلق كسيراً، وقدر عمره وإن طال المدى وسأله الردى نزراً يسيراً، وأقامه عانياً في أيدي الأقدار وحكم الليل والنهار أسيراً»[28] ولهذا السجع المتواشج الذي أطلقنا عليها في باب الأشكال والخصائص الأسلوبية مصطلحاً جديداً هو «السجع التوليدي» أشباه أُخَر في المختصر.

وعليه من الأسلوب الخطيبي أوضاح أخرى كالدقة التي عرف بها في التوزيع والتفريع، والميل في مختلف تآليفه إلى الضبط والتقسيم وهو منهج يكاد يكون ملتزماً في النثر الخطيبي غالباً.

ومما يؤكد هذه النسبة لابن الخطيب أيضاً وجود بعض القرائن الخاصة المتصلة بحياته وسيرته كإنشاده ولده عبد الله أيام تغربه بسلا[29] ثلاثة أبيات في التعزي عن المصائب[30]، وإملائه بيتين من نظمه على الطلبة عند عرض زجاجة الرمل[31]، وذكره أو استدعاؤه حكاية صديقه الفقيه محمد بن محمد ابن عبد الملك المؤرخ قاضي مراكش؛ فتلك مناسبات وخصوصيات تدعم نسبة هذا

---

(25) تبين مما تقدم أن هذا اللفظ مرجوح والراجح في أسر الوجود.

(26) يشير بذلك إلى زمن عودته إلى غرناطة من المغرب.

(27) راجع الضميمة.

(28) راجع الضميمة.

(29) راجع أخبار أولاده الثلاثة في نفح الطيب من تاريخ الأندلس الرطيب بتحقيق الدكتور إحسان عباس 7: 289 ـ 519، ديوان ابن الخطيب، والصيب والجهام له.

(30) ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: 302.

(31) م. ن: 310.

المختصر للسان الدين، ينضاف إلى ذلك مظهر التنوع المعرفي والثقافي واتساع الخبرة، وبعد النظرة في الحياة، وكلّها من المزايا التي عرفت بها شخصيته وعُرف بها نثره الفني بين أعلام القرن الثامن[32].

وقد بنى المؤلف كتّاشه هذا ـ كما دل مختصره ـ على مقدمة مؤسسة ـ على العادة المتبعة في مؤلفاته ـ على فن التحميد الذي ألمع خلاله إلى موضوع الكتاب ومضمونه ـ واتبع ذلك بالصلاة على رسول الله ﷺ ـ والترضي عن آله وصحبه «الذين أوسعوا هديه بياناً وتفسيراً»[33].

ثم قسم الكتاب ـ بعد حصر أسر الوجود في ظاهر وخفي ـ حسبما بيّن المختصر ـ على ثمانية أقسام وخاتمة، تمحور القول فيها جميعاً في معنى استنزال ألطاف الله الخفية، والوصية والنصح بتهوين مصائب الدنيا بالصبر، وأبدى خلالها تأملات وتجارب تبصّر قارئ الكتاب بما ينفعه في دنياه وأخراه.

فقد بيّن في كل قسم وجود الأسر والقيد وأظهر في مقابل ذلك طرائق التخفيض ـ كما عبّر ـ أو الخلاص من تلك الوجوه المبيرة. فالتكاليف الشرعية، والأوامر والنواهي في الأديان أسر «ولكن أشد الناس ضغطاً وكداً، أخلصهم للمالك وأشدهم مراقبة له، والتماساً لمراضيه، واجتناباً لمساخطه».

والسياسة المدنية أسر، ولكن الوقوف عند حدودها والتزام تقاليدها ومواضعاتها يهوّن قيدها، والمعاش والاكتساب أسر، والمعاشرة والمداخلة أسر ومصاحبة النفس للبدن أسر، إلى غير ذلك من الوجوه التي عدها أوقاراً وأثقالاً، وبيّن من خلال تجاربه طرق تهوينها كالصبر، وبرد اليأس، والرضا بحكم الله ومصاحبة أرباب الاستقامة، والاحتمال وغير ذلك من وسائل العلاج المناسبة لكل وجه، وهي داخلة دون ريب في سياق وصاياه العامة.

قال «وبالجملة: فأساس ما يرومه مستنزل اللطف في هذا الصبر والرضا، والتوكل وأمثالها فهي معاجن النفس وأدويتها باتفاق، واستعمال الاسترجاع

---

(32) راجع كتابنا «فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب.

(33) راجع كتابنا «أبحاث وتحقيقات في تراث الغرب الإسلامي.

منصوص[34] وإن كان من جملتها، وهو قوله: «إنا لله وإنا إليه راجعون»[35] إما بشرطه من الإخلاص وهو أكمل: وإما بحاله، فقد خصّه الله بذلك، وحال الخاصية لا ينكر، والدعاء إلى الله رب المعارج، ومنزل اللطائف «تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال»[36] هو السلاح المضاف إلى المؤمن.

ومن وصاياه المتصلة بحال العبد وقواه النفسية «وأما استنزال اللطف في أسر المزاج؛ فالحيلة في رده معاملته بضدِّ ما انحرف إليه من غذاء أو دواء أو رياضة وإصلاح هواء، وتدبير نوم ويقظة، واستفراغ واحتقان حتى يرجع إلى حاله»[37].

ومن وصاياه المتصلة بالرقي بأحوال العبد الروحيّة قوله: «ومن المناهج في إيثار الاستقامة مصاحبة أرباب الاستقامة، ومداخلة القوّام على الشريعة[38]، وحمده ـ سبحانه ـ على ما اختاره له من نعمة الإسلام المحفوفة بالحب، المخصوصة باللطف، المكنوفة بالرحمة، الممتازة بالتوسط وعلى التفصيل والجملة؛ فالذي يدندن[39] كافة الفضلاء حوله، هو أن الأسير إذا اتصف بهذه الأوصاف التي تقرّر رضا مالكه بها، وتخلق بها مع الوفاء بالوظائف، مُكثراً ذكره، مخلصاً في حبّه، ناسباً له العدل في حكمه، مسلماً ضرورته لعلمه، حافظاً لأمانته، حيّياً من إنكاره، كاتماً لأسراره، أقطعه رحمته، وسهّل عليه الفكاك، وقرّب عليه الخلاص»[40].

هذا وقد أرشد الكاتب في هذا المختصر المندرج ضمن وصاياه العامة إلى صور من الأعمال التي يقوّم بها المعاش كالتجارة والفلاحة والصناعة والعلوم

---

(34) مختصر استنزال اللطف الموجود، راجع الضميمة.

(35) م. ن.

(36) م. ن.

(37) م. ن.

(38) م. ن.

(39) يدندن: يتحدّث ويكرر.

(40) راجع النص.

النافعة وحذّر من الأعمال غير المجدية، والعلوم التي لا طائل من ورائها.

إن ابن الخطيب في هذا الكتاب أو الكناش الذي وصلنا مختصره، يقف من منطلق تجاربه العميقة والحفيلة التي أفضلت به إلى منعرج اضطره إلى التأمل في سبيل الخلاص، وقفة فيها الكثير من المراجعة والمحاسبة، بل يُنصّب من نفسه التي أرهقتها الحياة بمختلف شكولها السياسية والعلمية والاجتماعية ـ مرشداً رفيقاً، ينثر لقرائه وسامعيه ـ على النهج الذي اتبعه في «روضة التعريف بالحب الشريف»[41] جملة من انطباعاته ومواعظه وزواجره البليغة.

عملنا في تحقيق النصّ:

اعتمدنا في تحقيق هذا المختصر اعتماداً كلياً على النسخة الموجودة في الخزانة العامة بتطوان باعتبارها النسخة الأقدم على الرغم ما تلبست به من وجود الأخطاء وبعض التصحيفات والتحريفات في بعض المواطن، ثم استأنسنا بالمكتوب في ريحانة الكتاب؛ وبالنسخة الخطية التي انتسخها الشيخ محمد الأمين أبو خبزة؛ فجاء النص الذي ننشره الآن أقرب إلى الصحّة والدقة، ثم اتبعناه في الهوامش بالمقابلة بين النسخ والتخريجات وشرح الغوامض، وقد رمزنا في المقابلة برموز، وألحقنا النصّ المحقق بصورتي نسخة خزانة تطوان ونسخة الأمين أبو خبزة.

الرموز المستخدمة في التحقيق:

مخط (رخح): مخطوط ريحانة الكتّاب ونجعةِ المنتاب بالخزانة الحسنية تحت رقم (2195).

مخط (ط): مخطوط مختصر من استنزال اللطف الموجود في أسر الوجود بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم (353).

مخط (م): مخطوط المختصر المذكور نسخ الشيخ محمد الأمين أبو خبزة. حفظه الله.

---

(41) راجع الكتاب بتحقيق الدكتور محمد الكتاني، الدار البيضاء دار المعارف.

النصُّ المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن الخطيب ـ رحمه الله ـ «وثبت في صدر كتابي المسمّى ـ «باستنزال اللطف الموجود في أسرار الوجود[42] وهو ما جمعته لهذا العهد[43]»[44]: الحمد لله الذي خلق الإنسان مهيضاً جناحه[45] بالافتقار لما فيه[46] صلاحه كسيراً، وقدّر عمره ـ وإن طال المدى، وسالم الردى نزراً[47] يسيراً وأقامه عانياً[48] في أيدي الأقدار، وحكم الليل والنهار أسيراً، وجعل مرام الخلاص من قيود الوجود عليه إلا بلطف[49] الموجود عليه عسيراً، وملك ناصيته قضاء لا يجد فيه[50] مراغاً[51] ولا يستطيع مسيراً، ومزاجاً[52] محتاجاً إلى المراعاة مع الساعات[53] فقيراً، وتكليفاً يأخذ بأطواقه عن تراضي أشواقه[54] فلا يملك لنفسه قبيلاً إلا بإذنه ولا دبيراً[55] وسياسة يطيع فيها مرعاه راعياً، ويتبع

---

(42) تقدّم بيان أن هذه التسمية مرجوحة، وأن التسمية الراجحة ما أثبتناه.

(43) يشير إلى مرحلة عودته إلى غرناطة، وتوليه من جديد منصب أو خطة ذي الوزارتين قبل فراره إلى المغرب حيث قتل شهيداً.

(44) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب 1: 52.

(45) الجناح المهيض: كناية عن الجنح الكسير، والمهتاض المريض الكسير.

(46) في (ط) إلى ما فيه.

(47) ساقطة في (ب).

(48) العاني: الذليل والفقير والأسير.

(49) في (ط): إلا بلطفه.

(50) في (ط): لا يجد عنه.

(51) في (م) مراغا، والمراغ في أصل اللغة: المكان الذي تتمرغ فيه الدابة.

(52) المزاج: استعداد جسمي عقلي خاص يتولد عن تغلب أحد العناصر الأربعة: الدم، الصفراء، السوداء، البلغم، وهي العناصر التي يفسرها المحدثون بالإفرازات.

(53) مع الساعات ساقطة في (ط).

(54) في (ط) في مرامي أشواقه.

(55) الدبير: ما أدبرت به في الفتل إلى ركبتيك ضد القبيل وهو ما أقبلت به إلى حقوك، ويقال هو لا يعرف قبيلاً من دبير أي لا يدري شيئاً، ولا يعرف قبيله من دبيره: لا يعرف طاعته من معصيته.

مأموره منها أميراً، ومعاشاً يضطر فيه إلى إمداد حياته، وصلاح ذاته اضطراراً كبيراً، ومعاشرة بأبناء جنسه تكون السلامة لأجله منهم، وإدراك الكفاف من أيديهم خطاً أثيراً[56]، وابتلاه بما يلحق هذه الملكات علاوة على أحماله المهلكات فلا تجد غيره ولياً ولا نصيراً[57]، وخبأ له المكروه في المحبوب ابتلاء وتطهيراً، والمحجوب في المكروه إخفاء لستره[58] المحجوب في أستار الغيوب وتدبيراً، فقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[59] والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي بعثه بشيراً ونذيراً[60] ثم أتاح الراحة منهم لمن اصطنعه، وأنشأه من الحضيض الأوهد[61] ورفعه فجلل قامه تنويراً، ومهد له التوفيق سريراً، وجعل الفكر السديد بهدايته لنفسه الناطقة وزيراً[62]، واتصال عقله المستفاد بالعقل البريء من لواحق الكون والفساد كمالاً أخيراً، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي بعثه مبشراً ونذيراً[63] ودليلاً إلى حضرة الحق، من أقرب المآخذ على الخلق تنبيهاً وتحذيراً وإرشاداً وتبصيراً، وأنيط بسعيه في هذا الوجود الأول، والحلم المسلول عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً[64] والرضا عن آله وصحبه الذين أوسعوا هديه بياناً وتفسيراً، ما أطلع الروش[65] من روح السماء في عذير الظلماء وجهاً

---

(56) الأثير: المفضل على غيره.

(57) من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 17] وما تحته خط محذوف بالكامل من (ط) و(م).

(58) اختلاس من قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

(59) سورة النساء، الآية: 19.

(60) عبارة الصلاة على سيدنا محمد غير موجودة في مخطوط (ط) و(م).

(61) الحضيض: ما سفل من الأرض، ونهاية سفح الجبل، والوهد: الأرض المنخفضة. (ج) أوهد ووهدان.

(62) الوزير: المؤازر.

(63) تلميح وتضمين للعديد من الآيات الآية: 119 سورة البقرة، الآية 28 سورة سبأ، الآية 24 سورة فاطر.

(64) سورة الإنسان، الآية: 6.

(65) راش المرض فلاناً: اضعفه، وروش روشاً: خف عقله، والروش: الكوة ولعل هذا هو المراد.

منيراً، ولمع برق الغمام في السحب السجام سيفاً طريراً، أما بعد، فإنه جرى ببعض هذه المجالس التي نجعلها لكلال الأحباب جماماً ولعل المتلومين عن العلل غماماً، وفي أوقات التذكير التي لا تخلق ـ والمنّة لله ـ محن مع الساعات ليكسب، وسبيل إلى الخلاص يركب، وحكمة يطارد شاردها حتى يلقي المقادة، ويمتاح مواردها حتى تملأ مزاد السعادة ذكر ما يعتور الإنسان في هذا العالم من القواطع المساجلة والعوائق عن آماله العاجلة والآجلة، ويحف به في هذه الأحلام من ضورب الآلام، ويناله من القسر في هذا الأسر، وما الحيلة في تسليس قيوده الثقال، وتوسعة محاسبه الضيقة الاعتقال، إلى أن تقع رحمة الافتكاك والانتقال، وتوسعة الصدا بإدالة الصقال، ويصح المقام من بعد المقال، فوعدت من له عناية بنفسه، وارتقاب لمطلع شمسه، من الأصحاب المتعلقين بأهداب النظر، والمتشوقين إلى البخر من بعد الخبر، والحرص على قطع هذه المرحلة الحلميّة[66] بحال السلامة، وارتفاع عتاب وملامة، واستشعار جنة المكاره ولامه، أعلن في ذلك مقاله، تخفض البث[67] وتعمل في طلب الخلاص الحث، فتخف لأجلها العلائق، ويأخذ بخطه منها المبتدئ والفائق، والله ولي الهداية في كل سبيل، والوقاية من كل مرعى وبيل، ولما تحصل الوعد، وقع في الاقتصاد الإلحاح والاستنجاز الصراح، ولم يقع الإعفاء، ولم يسع إلا الوفاء.

فاعلموا أن أسر الوجود قسمان: أسرٌ باطنٌ خفي لا يعلم إلا بأثره، والاستدلال على عينه بخبره، وهو قسم مفرد، وواحد لا يتعدد، وأسر ظاهر للعيان، محسوس على الأجيال والأحيان، باد للأبصار، مستغن بالخبر عن الإخبار، فالأول: وهو الأسر الخفي، وهو المعبر عنه بالقدر واعتقاد أهل الحق أن ما أصاب الإنسان من خير أو شر قل أو جلّ ـ مكتوب عليه، مفروغ منه، لم

---

(66) لم يذكر الكاتب اسم الكاتب الموعود بهذه المقالة، وأراد بالمرحلة الحلمية مرحلة الدار الدنيا لقصر أمدها.

(67) البث: أشد الحزن، يقال: أبثتك: أي أظهرت لك بثّي، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

يكن ليخطئه ما أصابه، ولا ليصيبه ما أخطأه[68]، فهو أسير الأقدار، مسلوب الاختيار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[69] ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[70] ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[71] ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[72] وفي إخفاء الله إيّاه الستر الذي تمت به الحكمة، وعمرت به دار الابتلاء، والأسر الظاهر للعيان تتعدد أقسامه فمنه أسر المزاج[73]، ويتبع هذا الأسر تبعاً طبيعياً الأخلاق، إذ أخلاق النفس في الغالب تابعة لأحوال المزاج، ومنه أسر التكليف، وهو: قهر الله بالأديان، والملل والشرائع التي تملك الناس بالغلبة الإلٰهيَّة، وتأخذ بالحجز والأطواق، «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»[74] وهذا الأسر شديد لإطِّلاع المالك على باطن الأسير وظاهره، فلا تجوز له حيلة، ولا تتجه مكيدة، ولا تخفى عنه خافية، وأشد الناس ضغطاً وكداً أخلصهم للمالك، وأشدهم مراقبة له، والتماساً لمراضيه، واجتناباً لمساخطه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[75] ومنه أسر السياسة المدنية[76] كانت جارية على الأنحاء الشرعية ـ وقد مرّ ذكر ذلك أو اجتماعية، أو غير ذلك يلزم المأسور به الوقوف عند حدود اقتضاها الوضع والاختيار، وقلت تجري الأمور فيه على العدل،

---

(68) اختلاس من الحديث النبوي الشريف: «حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك. وما أخطأك لم يكن ليصيبك» سنن أبي داود: 16، الترمذي، قدر: 10، أحمد بن حنبل 5: 217، 6: 442.

(69) سورة الإنسان، الآية: 30.

(70) سورة آل عمران، الآية: 128.

(71) سورة القصص، الآية: 68.

(72) سورة الحديد، الآية: 23.

(73) هو استعداد جسمي عقلي خاص، كان القدماء يعتقدون أنه ينشأ عندما يتغلب في الجسم أحد العناصر الأربعة وهي: الدم والصفراء والسوداء والبلغم.

(74) البخاري إيمان: 17، 28 مسلم إيمان: 32، الترمذي إيمان: 1، 2، النسائي زكاة: 3. ابن ماجه فتن 1 ـ 3.

(75) سورة فاطر، الآية: 28.

(76) يراد بها النظم والمواضعات والقوانين المعمول بها لتسيير الدول وأحوال المجتمعات الإنسانية.

ومنه أسر المعاش والاكتساب، إذ لا يتم كمال البقاء إلا به، إذ لا بد من موارد القوى الإنسانية وما تفتقر إليه آلاتها البدنية من غذاء ولباس وكن وسكن، وغير ذلك، وهو أسر مطابق ووقت غير متسع، إذ زمان العمر كله لا يحتمله، ومنه أسر المعاشرة والمداخلة، أسر حرج وأمر مرج، يعاشر به الحيات في سلط[77]، والسباع الضارية في قور مشترط، والأعداء في مغارة[78] والشياطين في دارة، من حارس ينظر شزراً ومحكم لا يألوا الأسير ضراً، وجار جائر، وملابس مغاير، فهو يحتال في السلامة، والتوصل إلى الإعانة، فإن تخلص من هذا البيت فيعد الكيت والكيت[79]، ومنه: أسر النفس في الجسد، وهو الذي سبق الكل، وهو الأنشوطة[80] والغلّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونحن نتكلم في كل قسم من هذه الأقسام بنبذة من الكلام:

القسم الأول: من المقالة المسمّاة باستنزال اللطف الموجود في أسر الوجود، وفيه تخفيض أسر القضاء والقدر، ولم يجد الأول والآخر بحسب نوع الإنسان ترياقاً مسكناً، ولا دواء شافياً، ولا عقالاً مخلصاً إلا الصبر[81]، وهو الذي يسكن آلام النفس عند حرقتها ويكبحها بلجام التماسك عند لوعتها المستفزّة، وربما يكتسب بحيل المواعظ والتأسيات وضحاً وحسن العواقب العاجلة والآجلة، فالصبر أولى ما يرجع إليه العاقل، وآخر ما يرجع إليه الأخرق[82]، وهو ذخر الغرائز الإنسيّة، وناصر من عدم النصير على حرب نفسه، وجرعة من شرق بهمّه، وتنفيس من شدّ مختّقه برهن كربه، ولا أعظم في

(77) كذا كتب والذي يتأيد به السياق «يعاشر به الحياة في سفط».

(78) المغار: الغار في الجبل، والمغارة: المغار.

(79) يقال في الأمر كيت وكيت: كذا وكذا، وهي كناية عن القصة والأحدوثة ولا تسعملان إلا مكررتين.

(80) الأنشوطة: أحبولة أو عقدة يسهل انحلالها.

(81) الصبر في اللغة: التجلد وحسن الاحتمال، أو حبس النفس عن المحبوب، أو على المكروه بمعنى احتماله دون جزع.

(82) الأخرق: الأحمق الذي لم يرفق في عمله، وهي خرقاء والجمع خرق.

المصائب من المصيبة بالصبر، وقال أبو بكر[83] ـ رضي الله عنه ـ «ليست مع العزاء مصيبة» والعزاء هو الصبر وقال عمر بن عبد العزيز[84] «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، وعوّضه منها صبراً إلا كان ما عوّضه أفضل مما انتزعه منه» ومن شواهد الشريعة، قول الله ـ عز وجل ـ يخاطب أهل الجنة المبوئين كرامة داره، المستقرين بعد قطع عقبات المكاره في جواره ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[85] لكون جميعها مبنياً على الصبر، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[86] وقال رسول الله ﷺ للأنصار «**ما يكون عندي من خير فلن أذخره عنكم، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**»[87] **وفي قوله: «من يستعفف ومن يستغن ومن يستبصر بصره الله»**[88] ندباً إلى تكلّف العقل، وهو استدعاء الاستعداد للقبول فافهم ذلك فإنه من أصول هذا الباب وأسراره سيما في قسم الصبر غير المطبوع.

وخير الصبر ما كان عند الصدمة الأولى[89]، وأكثر ما يوجد في قسم الصبر المطبوع، وحقيقة الصبر تحمل النفس للمؤلم من بعد الإحساس به كرماً أو حياء أو رجاء عوض، فالمعلل منه بالكرم والحياء هو الطبيعي كتوطين الشجاع[90] نفسه على الموت ومنه قول الأعرابي: [الرجز]

تبكي علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الإبلِ

---

(83) هو أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ـ صاحب رسول الله وأول الخلفاء الراشدين.

(84) هو الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز مروان بن الحكم الأموي كانت حياته بين سنتي (61 ـ 101هـ) راجع فوات الوفيات 2: 105 تهذيب التهذيب 7: 475، صفة الصفوة 2: 63.

(85) سورة الرعد، الآية: 24.

(86) سورة الزمر، الآية: 10.

(87) في البخاري رقاق: 20، زكاة: 50، وفي مسلم زكاة: 124 وفي الموطأ صرقه: 7 ورد الحديث بلفظ آخر «ولن تعطوا عطاء خيراً وأوسع من الصبر».

(88) لم يرد في الكتب الستة، وجاء في البخاري والترمذي والنسائي قوله عليه الصلاة والسلام «من يستعف يعفه الله، ومن استعف أعفه الله».

(89) تضمين لمعنى الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

(90) في مخطّط «الشجعان».

والمعلل برجاء العوض هو الصبر المأجور عليه، وهو حبس النفس في الأوامر والنواهي، فلنعد إلى تفصيل مواضع الصبر.

أما ما يلحق البدو من المصائب فعلى قسمين: قسم يصابر المضض فيه باستنجاز وعد الأمل، وقسم يصابر فيه المضض استجلاباً لبرد اليأس[91] من الطمع في المحال، والتعلق بأذيال الممتنع، «وقع التوقع فاستراح البال»، كالذي يصبر على فقد عين غارت أو عميت، أو يد شلّت، أو سن سقطت، فإن هذا موت جزئي، والحزن عليه عبث ليس من الحكمة في شيء، وفي التعزّي عن المصائب أنشدت ولدي أيام التغرب بسلا[92]: [الوافر]:

إذا ذهبت يميناك لا تضيعْ ... زمانَك في البكاء على المصيبة

وسيراك[93] اغتنم فالقوس ترمي ... وما تدري أرشقتها قريبة

وما بغريبةِ نوبُ الليالي[94] ... ولكن النجاة هي الغريبة

وإذا انضاف إلى ذلك الرضا بحكم الله فيما أخذ والشكر على ما ترك وأعطى سكنت النفس، وما بين لحاق الكل بالبعض شيء يغتفر، وطريق استنزال اللطف الموجود فيما نال الأسير بأسر الوجود من هذا العذاب الأليم هو الصبر والاسترجاع، والقبض على مسكة[95] من الفكر والرؤية، ومنازعة النفس في أدنى بقية يتوجه إليها معها الخطاب ـ سراً أو جهراً ـ بلسان حال أو مقال،

---

(91) ومن الأقوال الحكيمة المأثورة «اليأس أحد الراحتين».

(92) يشير إلى أيام تغربه عن الأندلس مسقط رأسه في مدينة سلا المغربية بسبب نفي سلطانه محمد الغني بالله في الفترة الواقعة بين سنتي (760/ 763) بسبب ثورة أخيه إسماعيل عليه، ثم انتزاء صهره البرميخو على الحكم في غرناطة. وقد أورد ابن الخطيب هذه الأبيات الحكيمة التي أنشدها ابنه عبد الله وأمره بحفظها والتأدب بها، واللهج بحكمتها في نفاضة الجراب 2: 165 راجع ديوان الصيب والجهام: 302.

(93) في (م) وسيرك.

(94) نوب الليالي: نائباتها وحوادثها وفواجعها.

(95) المسكة: ما يتمسك به، يقال فيه مسكة، ورجل ذو مسكة صاحب عقل ورأي، والمسكة، البقية من الشيء.

فنبين لها معنى الوجود، وأنه نظام منثور، وعوارٍ لا تملك، ومحنة لا منحة، وعبور جسر، وسفر ركب لا غبطة لفاضل به، ولا معول لعاقل عليه، قال سيدنا رسول الله ﷺ في بعض خطبه «**أيها الناس: الأيام تطوى، والأعمال تفنى، والأبدان في الثرى تبلى، وأن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد**[96]، **ويقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد**»[97] ثم يزاد استبصاراً لحال الوجود، وبياناً لشأنه، وأن التظلم منه جهل، فإنه لم يرزأ المصاب حقاً صح له تملكه، ولا نازعه ملكاً سبق له اختياره، إنما قدم المرء على الوجود عرياناً لا مال له ولا حيلة ولا قوة ولا تدبير، وألفى الوجود يعمل عمله من حياة وموت، وبناء وهدم، واقتلاع وغرس، فنسب المسكين إلى نفسه شيئاً من أوضاع دار الوجود توهم أنه قد ملكها، وتأنس بمسكين مثله غريباً[98] ضعيف راحل، والوجود ـ مع ذلك ـ يتصرف[99] تصرفه المعتاد له، حتى إذا انتهت يده إلى ما احتازه ذلك المسكين ـ شأنه في غيره من الأشياء ـ تظلم وصاح وأعول، والوجود يضحك من جهله، ولا يثنيه ذلك عن شأنه حتى تأتي دولته، ويضع يده فيه فيبكي عليه، ويعول مسكين بآخرها كذا جيلاً بعد جيل إلى أن يطوي الله بساط هذا الكون، ثم يتبين أن هذه المصاحبة مصاحبة الغرقى على الأعواد، والمعتقلين في الأصفاد[100]، والأحلام المحلية عند الرقاد، ولقد عرضت عليّ يوماً زجاجة الرمل التي تسيّر بها الساعات فنظرت إليها بمحضر الطلبة، وأمليت عليهم قولي: [البسيط]:

تأمل الرمل في المنكان[101] منطلقاً ... يجري وقدر عمراً منك منتهبا

والله لو كان وادي الرمل ينجده ... ما طال طائله إلا وقد ذهبا

ولقد حدثني الفقيه محمد بن محمد بن عبد الملك المؤرخ قاضي

---

(96) البريد: أصله الدابة التي تحمل الرسائل، والرسول.

(97) لم يرد في الكتب الستة.

(98) في (م) غريباً.

(99) في (م) تصرف.

(100) الأصفاد: القيود.

(101) المنكان: الساعة الرملية راجع الصيب والجهان: ديوان، أزهار الرياض 1: 309.

مراكش[102] رقية لجنون الحزن، قال حدثني والدي أنه ضاعت له ببلده بقرات كان كلفاً بها ونام مغموماً من أجلها، قال: فرأيت في النوم والدي فقال: يا محمد اغتممت بالبقرات ووجدت عليها. قلت: نعم، فقال: لا تغفل واحفظ عني: [البسيط]:

نفسي التي تملك الأشياء ذاهبةٌ فكيف آسى على شيء إذا ذهبا

قال: فانتبهت وقد سلوت عنها وعن غيرها. قال الله ـ سبحانه ـ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[103] الآية، وما أصدق القائل: [البسيط]:

كم كافرٍ بالله أمواله تزداد أضعافاً على كفره

ومؤمنٍ ليس له درهمٌ يزداد إيماناً على فقره

وبالجملة: فأساس ما يرويه مستنزل اللطف في هذا هو الصبر والرضا والتوكل وأمثالها فهي معاجن النفس وأدويتها باتفاق، واستعمال الاسترجاع منصوص[104] وإن كان من جملتها، وهو قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[105] إما بشرطه من الإخلاص وهو أكمل. وإما بحاله فقد خصه الله بذلك وحال الخاصية لا ينكر، والدعاء إلى الله رب المعارج، ومنزل اللطائف ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[106] هو السلاح المضاف إلى المؤمن.

---

(102) ترجم له ابن الخطيب في الإحاطة 1: 527، ومما نقله في وصفه من كتابه عائد الصلة أنه «غريب المنزع، شديد الانقباض، محجوب المحاسن، تنبو العيش عنه جهامة وغرابة شكل، ووحشة ظاهر، في طي ذلك أدب غض، ونفس حرة، وحديث ممتع، وأبوة كريمة، أحد الصابرين على الجهد، المتمسكين بأسباب الحشمة».

(103) سورة البقرة، الآية: 268.

(104) الاسترجاع هو طلب الرجوع إلى الحق، والإقرار بالعبودية والضعف أمام الله واجب الوجود، والمتصف بالكمال والبقاء المطلقين.

(105) سورة البقرة، الآية: 156.

(106) سورة الأعراف، الآية: 205.

وأما استنزال اللطف في أسر المزاج، فالحلية في ردّه معاملته بضد ما انحرف إليه من غذاء، أو دواء أو رياضة، وإصلاح هواء، وتدبير نوم ويقظة، واستفراغ واحتقان حتى يرجع إلى حاله، وأما استنزال اللطف الموجود في أسر التكليف. قال الشيخ تاج الدين[107] ـ رحمه الله ـ «علم عجز عباده عن مقارضته وكسلهم فجذبهم إليه بزمام الواجبات «يعجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[108] ولا شاهد في إطلاق لفظ الأسر على وظائف التكليف مثل استعارة السلاسل[109]، وقد تقررت ضروب ما تعبد به أسير التكليف من واجب وحرام ومندوب ومكروه ومباح حسبما ثبت ذلك في محله[110]، وسير الشارع ودأبه فغنينا عن إعادة ذلك والحمد لله.

ولمناط هذا التكليف غرض ذو طرفين، أغياها[111] طرف الاجتهاد بشروطه، ويقابله طرف المقنوع[112] منه بأقل ما يلزم المكلف، وبينهما مجال رحب أسلم ما صحب فيه للمسلم تركه فضول القول والعمل، والاشتغال بالتقوى، والعمل لما بعد الموت[113] والمراد من النفس[114] الاتصاف بالاستقامة[115] وهي عبارة عن الوسط، وأوامر الشريعة ونواهيها لا تنافي

---

(107) يريد تاج الدين، أبا الفضل أحمد بن محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندري أحد أعلام المالكية، والشاذلية في القرن الثامن الهجري، اشتغل بالتصوف ممارسة ومدارسة ولزم الشيخ أبا العباس المرسي، وصنف كتباً منها الحكم العطائية التي شرحها أبو عبد الله بن عباد الرندي، وتوفي بالقاهرة سنة 709 ودفن تحت جبل المقطم.

(108)

(109) وهي استعارة تصريحية أصيلة. راجع الدرر الكامنة 1: 223، نفح الطيب 7: 226 الرياح من كتب الفقه ومقاصد الشريعة.

(110) من كتب الفقه ومقاصد الشريعة، المذهب: 70 النجوم الزاهرة 8: 280.

(111) أي أقصى غاياتها.

(112) في (م) المنزع.

(113) وفي الحديث الشريف «**والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**». الترمذي، قيامة: 25، ابن ماجة، زهد: 31 أحمد بن حنبل. 4: 124.

(114) في (م) التقوى.

(115) قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الآية 15 سورة الشورى. وقال عليه الصلاة والسلام: «**قل آمنت بالله ثم استقم**». مسلم، إيمان: 62 أحمد بن حنبل 3، 413، 4: 285.

الوسط، وأسيرها بين ظالم لنفسه، ومقتصد وسابق بالخيرات بإذن الله[116] وقد تعيّن لكل واحد منهم حد من الاستقامة من استدامتها في الاثنين، ومراجعتها في الثالث ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[117].

ومن المناهج في إيثار الاستقامة، مصاحبة أرباب الاستقامة، ومداخلة القوّام على الشريعة[118]، وحمده ـ سبحانه ـ على ما اختاره له من نعمة الإسلام المحفوفة بالحب، المخصوصة باللطف، المكنوفة بالرحمة، الممتازة بالتوسط وعلى التفصيل والجملة، فالذي يدندن[119] كافة الفضلاء حوله، هو أن الأسير إذا اتصف بهذه الأوصاف التي تقرر رضا مالكه بها، وتخلق بها مع الوفاء بالوظائف، مكثراً من ذكره، مخلصاً في حبّه، ناسباً له العدل في حكمه، مسلماً ضرورته لعلمه، حافظاً لأمانته، حيياً من إنكاره، كاتماً لأسراره، أقطعه رحمته وسهّل عليه الفكاك، وقرب عليه الخلاص.

القسم الخامس من المقالة[120] المسماة باستنزال اللطف الموجود في أسر السياسة والغلبة، وما يتعلق بذلك ولا حيلة لتخفيض هذا الاعتقال على من بلى أنفع من الاقتصاد، وقلة المداخلة، وصون اللسان واليد، والانحياز إلى فئة العافية والخير، وبقدر الاتصاف بما ذكر تكون السلامة بكل اعتبار فأما الاقتصاد في المأكل والملبس والمسكن والمنكح فهي داعية إلى رضا الرؤساء، وأما قلة المداخلة فستر للأحوال وسور أمام النميمة، وحجاب عن المحمدة والمذمّة، وأما صون اللسان واليد فمنثور الأمان من النكير، وضمان السلامة من المصارع[121]، وأما الانحياز لفئة الخير، فداع إلى التجلة، وموجب للحياء، ومن أكثر من شيء عرف به.

---

(116) سورة فاطر، الآية: 32.

(117) سورة الشورى، الآية: 13.

(118) قال الإمام أبو حنيفة النعمان «المتقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة».

(119) دندن الرجل: تكلم بصوت خفي يسمع ولا يفهم.

(120) في (م) من الحالة.

(121) أي المواضع التي تتم فيها الهلكة.

القسم السادس: أسر المعاش الذي تدعو ضرورة الحياة إليه، وعناؤه شديد، أورد الناس الموارد بسبب تزايدهم في التماس الأفضل إلا من فك الله أسره، إما باقتصاد صريح، أو زهد طريح، فنقول: قد تبين أن للانسان أعضاء جسمانية، وقوى محركة، والقوى ثلاثة: القوة الناطقة، والغضبية، والشهوانية[122]، وهذه القوى مفترقة إلى أدوات. منها وجود المواد التي تفتقر إليها أغراض تلك القوى، كالغذاء والملبس والمسكن والسكن[123] وغير ذلك من كمال يحتاج إليه من مؤانس وكتاب وآلة رفق، ولا يتوصل إلى المواد إلا بالمال، وربما اتفق منحة شاذة عن الكسب كفرص الكنوز والمواريث، ولا مُعوّل على ذلك، وإنما الحيلة فيه الاكتساب كالعلم، فيجب إعمال الحيلة في اكتسابه وإذا أجرى بفكره ضروب المعاش وجدها تنحصر في وجوه من خدمة السلطان أو الفلاحة، أو التجارة أو الصناعة أو الكدية[124]، وربما اقتضى كرم خالق الأسباب ـ سبحانه ـ أن يجعل الخلق من جميع ذلك سبباً، فسبحانه ما أوسع جوده، وأعجب وجوده.

فأما خدمة السلطان، فأحرج الكل أنشوطة[125] ويشتد الأمر أو يلين بحسب المراتب والمجال، وتسهيل الصعب في ذلك بالتزام الأمانة والصدق، واجتناب الطمع، وكتمان السرّ، وإطراح الدالة، ومراقبة الله، وليس في المجالس التي اقتضاها المعاش أضيق من هذا المحبس المغشاة جوانبه بالزخرف المخصوص شهده بكمون السمّ في الحلاوة.

---

(122) والقوة بالتاء المربوطة: ضد الضعف، ومبعث النشاط والحركة وتنقسم إلى طبيعة وحيوية وعقلية.

(123) السكن: الزوج وما سكن إليه النفس.

(124) الكدية: الفقر المفضي إلى التسول والتحايل لأجل الوصول إلى السعة.

(125) وقول ابن الخطيب هذا ـ يجسد تجربته العميقة في خدمة السلاطين والملوك في الأندلس والمغرب، ومع تذرعه بالحكمة في خدمتهم فقد هلك بسبب هذه الأنشوطة في نهاية مفجعة لم يراع فيها الحكام علمه ولا سنه ولا سابق خدمته التي سيرت السياسة والحضارة في العدوتين. وما أروع وصفه الدقيق لهذا المحبس الأنيق «فأما خدمة السلطان فاحرج الكل أنشوطة، ويشتد الأمر أو يلين بحسب المراتب والمجال..».

وأما الفلاحة فهي الاكتساب الطبيعي للإنسان وفي المثل «فلاح المعيشة في الفلاحة».

وأما التجارة فأفضل أحوالها ما تأتي مع السكون ومصاحبة الأموال، أو في سبيل طرق سليمة وقيل: النسيئة نسيان[126]، والتقاضي هذيان، وقيل صفقة ذرة بنقد خير من بدرة بوعد، ومن أصولها: مداخلة أولي الإقبال، واجتناب أضدادهم. قال الحكيم: «عاشروا من أقبلت عليه الدنيا، فهو أجلب للخير منكم».

وأما الصنائع: فمن الواجب على الفاضل أن يلتمس الصنائع اللطائف الغامضة[127]، والصنائع منها ما يفتقر إلى مداخلة اللفيف والجمهور كالحياكة، وإلى الكدّ كالبناء، والدخان كالصياغة ومنها الوراقة، واكتساب العلم، ومحاولة أزرة الحرير، وخياطة الثياب، وأعلاه تدريس العلم وهو أرفعها وأولاها بالمشيخة[128]. ومنها ما يوهم سر الكيمياء كالزنجبور[129] من غير تلبس بشيء من أمر الكيمياء، والانخراط في سلك دائها العياء، فقد شهد الخلف عن السلف بعلم نتيجتها، وعدم نصرتها، وإن كان الإمكان يرخص في ذلك، وهو الإمكان البعيد جداً حسبما أشار إليه ابن سينا في الشفاء[130] وغيره ومن قبله.

والحرص نار في يبس لا يقف عند غاية، والأولى به الترفع [عن][131] المباشرة للمعاش في الدكاكين.

---

(126) يقال: باعه بنسيئة بتأخير.

(127) يقصد البديعة الرفيعة الموسومة بالدقة وجمال الصنعة.

(128) وفي الحديث الشريف تأييد لهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» ابن ماجة ـ مقدمة: 17 وقال: «**ما أعلم عملاً أفضل من طلب العلم**» سنن الدارمي، مقدمة: 32.

(129) الزنجبور:

(130) في (م) بعقم. هو الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا المولود في سنة (370/ 980) برز في تحصيل العلوم، وناظر أعلام العلماء فاشتهر، ثم تعرض لمحن وفتن كثيرة، توفي في همذان بعد مرض عام (428/ 1037) وله تآليف متنوعة من أبرزها «القانون» و«السياسة» و«حي بن يقظان» وكتاب «الشفاء» المذكور.

(131) سقط هذا الحرف للتعدي في المخطوط. راجع ورقة 60 و(م): 56.

وأما الكدية بالشعر وغيره فليست مما عد في المعاش الحقة[132].

القسم السابع: في أسر[133] المعاشرات والمساكنات والمداخلات أما من يداخل فينقسم إلى ملك وخدام شريعة وولد وزوج وصديق وأقارب، ومسار وعامة. فأما السلطان فيلزم من يساكنه ثلاث خلال وهي: أن لا يذكره بسوء حتى السر في نفسه، ولا يذكر ما لا يحب أن يذكر، وإن كان حقاً، ولا يستريح في ذم الزمان الخاص ولو مع الثقة وأما حامل الشريعة فيحرص على صحبته، والانتفاع بعلمه، وأما الولد: فثمرة القوى الحيوانية ومظنة الإنجاد عند المعجزة[134]، وقال الشاعر: [الوافر]:

رأيت ابن الفتى ضرراً عليه ... فقد سعد الذي أمسى عقيما

فإما أن يربيه عدواً ... وإما أن يخلفه يتيما

وإما أن تصادفه المنايا ... فيبقى حزنه أبداً مقيما

والعدل يوجب أن يكون اتخاذه بعد وفر من المال، وفي قول الله ـ عز وجل ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾[135] علة[136] وبتقديم المال يشهد لذلك، وقال الحكيم «أدوم الأشياء سروراً الأمن» وقال: «أحسن الناس عيشاً آمنهم».

ويتعلق بهذا الفصل الكلام في العلم فنقول العلم على نوعين: علم مهجور، وعلم مستعمل: فالعلم المهجور جميع ما يختص بأغراض الفلسفة[137] والمستعمل ما عداه كعلوم الدين[138] وعلوم اللسان[139] والمستعمل

---

(132) الكدية: حرفة السائل الملح.

(133) لفظة أسر سقطت في (م).

(134) مصدر ميمي بمعنى العجز، قال الطغراني:

رضى الذليل بخفض العيش معجزة ... والعز عند رسيم الأينق الذلل

(135) سورة الكهف، الآية: 26، وتمامها «زينة الحياة الدنيا».

(136) لفظة علة ساقطة من (م).

(137) الفلسفة هي طلب الحكمة، وتفسير المعرفة تفسيراً علمياً وعقلياً، وكانت عند الأوائل تشمل جمع العلوم والفنون، ثم ضيق مجالها فصارت مقصورة الآن على المنطق والأخلاق وعلم الجمال وما وراء الطبيعة.

(138) كعلوم القرآن الكريم، والحديث الشريف ومصطلحه وعلم الفقه وأصول الفقه، ومقاصد الشريعة.

(139) كالنحو والصرف والبلاغة وعلم اللغة والإنشاء.

على ضربين: علم الوقت إذ للعلوم أوقات وأسواق، يولع الناس فيها بفن دون فن بحساب[140] البلاد والعباد، وعلم الوقت يترجح الشغل به والنظر فيه، وغيره مرجوح، ومن الواجب على الفاضل وذي السياسة أن يشتهر بعلم ما يرأس به في أهل وقته، ويعود عليه بالتجلة والجاه، ويجتنب ما يكسبه الحرج والمذمة والنقض والقدح في الدين، والوسم بالزندقة[141] كالذي أصاب قوماً من الأعلام كالقاضي أبي الوليد ابن رشد[142] وغيره.

وأما الإنفاق فقانونه السياسي: أن لا يخرج ما أفاده الكد والعناء والشقاء إلا في واجب[143]. ومع الثراء الحج والتوسع الذي لا يتصف بالتبذير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[144] وفيه إشارة للمواد التي تستدعي رأي الشيطان، وتتأكد لها محبته لولوعه في الانحراف، والخروج على الوسط إلى الأطراف[145] فافهم ذلك ترشد إن شاء الله، ويستشعر الحلم فيما يطرقه من إذاية جاهل، أو نيل ظالم، ويكل أمره للوجود ويقابله بالإعراض والتجمل[146]، ويرى أن أجزاء العمر أنفس وأعلى من إضاعتها في مجاورة جاهل، أو معارضة سفيه،

---

(140) في (م) بحسب.

(141) الزندقة: القول بأزلية العالم، وأطلق على بعض الطوائف والفرق القائلين بذلك مثل الزردشتية والمانوية وغيرهم ثم توسع في إطلاق المصطلح فصار يطلق على كل شاك في حقيقة الله أو ضال عن الدين القويم، واستخدم استخداماً سيئاً ـ في تاريخ الإسلام ـ فرمى به الكثير من العلماء الفضلاء وأحرارِ المفكرين المسلمين، ومن الغريب أن يرمىٰ لسان الدين ابن الخطيب نفسه بهذه التهمة، فيفقد حياته بفرية خصومه الآثمين.

(142) هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد من علماء القرن السادس الهجري، والمتوفى سنة 520.

راجع ترجمته في طبقات الأطباء 2/ 75، والديباج المذهب: 284.

(143) في هذا المعنى نظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ الآية: 29 سورة: الإسراء

(144) الآية: 27 سورة الإسراء.

(145) الفضيلة كما عرفت هي حسنة بين سيئتين الإفراط والتفريط.

(146) قال الله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الآية: 199، سورة الأعراف، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ الآية: 34 سورة فصلت.

وقال الشاعر في مثله[147]: «ومن يعضَّ الكلب إن عضَّا» وهذا الباب المضاف إلى خلق الحلم أعون على بليات المعاشرات من كل معين.

القسم الثامن: يختص بالكلام في أسر النفس في سجن الجسد، قال عمر بن عبد العزيز: ما الجزم مما لا بد منه ولا الطمع فيما لا يرتجى، وأولى ما عمل به العاملون أن تطيب النفس في حال انفصاله عن سجن الجسد بصفة الفرح والسرور وحسن الظن بالله: [الكامل]

وكذا المجالس بالدعاء ختامها وكذا الحلاوة آخر المطعوم

وأكد أربا البلاغة في تحسين خواتم الشعر لكونها آخر ما بقي في الأسماع[148].

الخاتمة التي منزلتها من هذه المقالة منزلة اللب[149] من القشر، واللباس من النشر، قال مماليه: ميزان العدل أن يقابل القضاء بالصبر والتسليم والرضا بحكم الحكيم العليم، واعتقاد أن لا ملكة للعدم ولا للعديم، وأسر التكليف بالاستقامة صحبة رد وباء وهوى مغلوباً، وأنشأ بها مجلوباً، وشكراً على اختصاص بالوسط يبلغ مطلوباً، وأسر السياسة بأدب يوفي الحقوق، ويجنب العقوق، وأسر المعاش بابتغاء السلامة، ولبس اللامة، والتسليم ولو في القلامة[150]، وأسر المزاج بمراعاة أحواله، والمثابرة على اعتداله، ورده إلى الحال الصحيّة عند اختلاله وأسر النفس في الجسد بتسهيل الموت، وتأميل اتصال الصيت[151] من بعد انقطاع الصوت[152] ولله در القائل: [الخفيف]:

قل وزدني من الحديث وكرر لا تخف من ملامة الترداد
إن يكن بارداً حديث معاد قلت يا برد ذا على الأكباد

والذي نصدع به حكماً، ونسد به حالاً وعلماً أن الفضل لمقاصد الشريعة،

---

(147) هذا شطر بيت من البحر.

(148) راجع كتاب تحرير التحبير لابن أبي الأصبع: 616، كتاب الصناعتين للعسكري: 504.

(149) في (م) اللباس.

(150) القلامة: ما قطع من طرف الظفر أو الحافر أو العود، مثل في الحقارة والقلة.

(151) الصيت كناية عن الجاه العريض والمنزلة العالية.

(152) انقطاع الصوت كناية عن استيفاء الأجل والوفاة.

(الشكل 1)

الورقة الأولى: من مخطوط استنزال اللطف الموجود الخزانة العامة بتطوان رقم: 353

(الشكل 2)

الورقة الأولى والثانية من استنزال اللطف الموجود بخط الشيخ محمد الأمين أبو خبزة